رواية قصيرة

دانيال خارمس

ترجمة: إقبال عبيد

مراجعة عن النسخة الروسية:
إبراهيم فضل الله

العجوز

فريق متميزون
E-BOOK

Daniil Kharms

The Old Woman

Старуха

الطبعة الثانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المرأة العجوز

رواية مترجمة..

الكاتب: دانيال خارمس.

ترجمة: إقبال عبيد

مراجعة عن النسخة الروسية: إبراهيم فضل الله

إهداء خاص..

دانيال خارمس

1905-1942

الأدب الروسي هو دائما المكان الملائم للخوض في غماره وتأمله، والكتاب مثيرو الاهتمام خصوصا في الأدبيات الروسية، يجرون في كل سطر أنماطًا أدبية فريدة ومتميزة، تحمل بين طياتها قضايا إنسانية وهموم كابوسية، تنجم عن واقع مرير ومسيطر، إن كان على صعيد اللغة أو المحتوى. من بين الكتاب المعاصرين؛ الكاتب الروسي -قليل الحظ- دانيال خارمس، والذي حظي بصيتٍ محدود بين أقرانه الكتاب في ذاك العصر من رواد قسم لينينغراد. حظي بعضوية لينيغراد الأدبية بموافقة كافة أعضاء اتحاد الشعراء الروس في سنة 1926، لما كان في شعره من قوة ورصانة وإتقان المعنى.

لم يستطع خارمس نشر أي من أعماله الأدبية للبالغين بشكل رسمي باستثناء قصيدتين؛ بسبب ما فرضته توجهات رابطة اتحاد الكتاب السوفياتي المسيطرة آنذاك. فشكّل هو وصديقه وشريكه الوحيد ألكسندر ففيدنسكي (1900-1941) رابطة أدباء أوبيريو (الفن الواقعي التجريبي)، واتجه خارمس للكتابة للأطفال، فأنتج ما يقرب من 11 كتابا متنوعاً لهم، منها (القنفذ وسكسين) عن طريق دار النشر المعروفة بـ«مارشال أكاديمي».

أثارت عدد من حكايات الأطفال تلك جدلا واسعا آنذاك، وتسببت في اتهامه بالترويج للاشتراكية، ونشر أفكار مشوهة وغير آمنة للأطفال، ومضادة للاتحاد السوفياتي، ومليئة بالرمزيات والإسقاطات. حاول خارمس تبرئة نفسه بالتظاهر بالجنون، إذ لم تكن الثورة السو□ياتية الجديدة متسامحة ولا مرنة مع ما أسمته بتفاهات وترهات خارمس؛ وعلى إثرها سرح عدد من كتاب رابطة أوبيريو.

أعفي خارمس من الخدمة العسكرية بعد تشخيصه بالفصام والهلوسة في سنة 1929.

وفي أغسطس عام 1941 ألقي القبض عليه مجدداً بذات التهم المناهضة للنظام الشيوعي؛ كتمرير دعايات نصية متوارية ومعادية خلف حكاية (رجل خرج لشراء التبغ واختفى). زجّ به في عيادة الطب النفسي الخاصة بسجن لينينغراد أثناء أول أقسى شتاء في الحصار الألماني. في الثاني من شباط/ فبراير 1942، منسيًّا داخل جناحه، مات من الجوع.

لا يمكن تصنيف خارمس كروائي أو كاتب حكايات تقليدي، إنما هو كاتب لا يسعى إلى قسرك على فهم ما يريد. فيُخفي خلف نسيج شخوصه ألف حكاية وقصة. هو رجل بهوية أدبية متفردة في مدرسة العبث. بعد ثلاثين سنة من منعها، تمكنت أعمال خارمس من الظهور بذات الألق والعبثية التي كانت تستهويه.

هنا، أترجم لكم قصة (المرأة العجوز)، تلك التي التقاها خارمس صدفة في الشارع وهي تحمل ساعة بلا عقارب. لقد عشت ذات العوالم الانفصامية التي كان يعيشها الكاتب، الهدوء والبرود والذعر والقسوة كلها في قالب واحد متماسك أو هش. هذا لا يعني أنه لم يستطع إرسال رسالته. العجوز المهيمنة! والساعة المباغتة! هل كان خارمس يرمز إلى شيء ما هنا؟

...ويدور بينهما الحوار التالي..

هامسن..

..1939

- إقبال عبيد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول: ساعة دون عقارب

في الفناء تقف امرأة عجوز تحمل بيديها ساعة حائط، أمرُّ بقربها، أتوقف؛ وأسألها...

- كم الساعة الآن؟

أجابتني:

- ألقِ نظرة.

نظرت ورأيت أن الساعة خالية تمامًا من العقارب.

- لا توجد أيَّةُ عقارب هنا.

نظرت العجوز إلى الساعة، ثم قالت:

- إنَّها الثالثة إلا الربع.

- أوه، هكذا إذن. شكرا جزيلا. أقول لها ثم أمضي.

المرأة العجوز تهتف بشيء ما خلفي، لكنني أسير دون التفات.

أخرج إلى الشارع وأسير بمحاذاة الجانب المشمس، يا لجمال شمس الربيع اللطيفة، مشيت وأنا أجول بعينيَّ في فضاء المكان، مستمتعًا بنفث غليوني. عند منعطف سادوفايا يصادفني مقبلاً «ساكيردون ميخائيلوفيتش". تبادلنا التحية، وتحدثنا هناك لوقت طويل، ولأكون صادقًا سئمت الوقوف في الشارع، دعوته إلى حانة القبو، احتسينا الفودكا، وتناولنا بيضًا مسلوقًا مع أسماك الرنجة، ثم ودعته وسرت وحدي.

في هذه اللحظة، تذكرت أنَّني نسيت إطفاء الفرن الكهربائي في مسكني. هذا مزعج للغاية، أستدير عائداً إلى المسكن، لقد بدأ اليوم بشكل جيد للغاية، وها هو أول النحس. ما كان ينبغي عليّ الخروج إلى الشارع.

أعود إلى مسكني، أخلع معطفي ثم أخرج ساعة صدري وأعلقها على المشجب، أغلق الباب، ثم أتمدد على الأريكة، سأستلقي، وأحاول أن أنام.

صراخ الأولاد المقيت يطفح من الشارع، أسمعه هنا، أتمدد وأفكر في حلول عديدة لإخراسهم، كنت أفضل أن أصيبهم بعدوى الكزاز([1]) ليتخشبوا فجأة، ويكفّوا عن الحركة.

فيسحبهم آباؤهم سحباً إلى منازلهم؛ ليلقوا بهم على الأسرة، عاجزين حتى عن مضغ طعامهم؛ بسهولة... لا يقدرون حتى على فتح أفواههم، سيتم تغذيتهم بالأنابيب، وبعد أسبوع من توقف التشنجات، سيكون الأطفال منهكين؛ فيركنون إلى الاسترخاء طرحاء أسرتهم، ربما لشهرٍ كاملٍ، وبعد تعافيهم قليلاً قليلاً، مرة أخرى أصيبهم بالكزاز؛ فلا يبرحون متخشبين.

أتمدد على أريكتي شاخص الأعين، لا أستطيع النوم، أتذكر العجوز حاملة الساعة التي رأيتها اليوم في الفناء، لقد شعرت بنوع من السرور عندما لم أرَ العقارب على ساعتها. فبالأمس فقط، شاهدت في متجر الأدوات المستعملة، ساعة مطبخ كريهة، كانت عقاربها على هيئة سكين وشوكة.

- يا إلهي، ما زال الفرن الكهربائي مشتعلا نسيت إطفاءه، أقفز وأطفؤه، ثم استلقي مجددًا على الأريكة، أحاول النوم. أغلق عينيَّ، ولكن لا يطاوعني النوم. شمس ربيعية تسكب ضياءها مباشرة على نافذتي باتجاهي، شعرت بالحرارة، أنهض وأجلس على الكرسي المحاذي للنافذة،

الآن أشعر بالنعاس لكنني لن أخلد للنوم، آخذ ورقة وقلماً... سأكتب. أشعر بقوة هائلة تتملكني. لقد فكرت في كل شيء منذ أمس، سأكتب قصة عن صانع معجزات، يعيش في عصرنا هذا ولا يصنع معجزات.

هو يعلم بأنَّه صانع معجزات وفي استطاعته فعل أيِّ معجزةٍ، لكنه لا يفعل؛ مثلاً يتم طرده من شقة كان يسكنها، وهو كان مدركاً بأن تلويحةٍ من منديل، كانت كافية لتؤول الشقة إلى ملكيته، ولا يفعل، بل يخلي الشقة بخضوع، وينتقل للسكنى في كوخ خشبي على أطراف المدينة. كذلك كان في استطاعته أن يحيل الكوخ الخشبي البائس إلى منزل قرميدي رائع، لكنه لا يفعل، بل ظل عائشاً في الكوخ، إلى أن مات في نهاية المطاف، دون أن عمل ولو معجزة واحدة طوال حياته.

أجلس وأفرك يداي بغبطة، سينفجر ساكيردون ميخائيلوفيتش من الحسد، فهو غير مقتنع بقدرتي على كتابة شيء عبقري.

سريعاً، سريعاً هيا إلى العمل! ليسقط النوم والكسل، سأكتب لثماني عشرة ساعة متواصلةً!

من فرط حماسي أرتجف بالكامل، لست قادراً على التفكير بما يجب عليّ فعله: كان يجب عليّ أخذ قلم وورقة، لكنني رحت ألتقط أغراضاً مختلفة، سوى تلك التي أريدها. أذرع الغرفة سريعاً من النافذة إلى الطاولة، ومن الطاولة إلى الفرن، ومن الفرن مجددًا إلى الطاولة، ثم إلى الأريكة ومرة أخرى إلى النافذة، أختنق من اللهيب الذي اشتعل في صدري. إنها الآن الخامسة فقط، أمامي النهار بأكمله: والمساء، والليل بطوله... أقف في منتصف الغرفة. في أي شيءٍ تراني أفكر؟! الآن تجاوزت الخامسة بعشرين دقيقة! يجب أن أشرع في الكتابة، دفعت الطاولة نحو النافذة، جلست خلفها، أمامي ورقة بيضاء بمربعات، وأحمل قلماً.

ما انفك قلبي يخفق بشدة، ويداي ترتجفان، أتمهل، حتى يهدأ جيشاني، أضع القلم جانبًا، أحشو غليوني، الشمس تحدق مباشرة في عينيَّ، أقطب عيناي وأنفث غليوني.

والآن، يحلق غراب بقرب النافذة، ألقي بنظرة عبر النافذة إلى الشارع، فأرى على الرصيف رجلًا أعرج يمشي على ساقٍ اصطناعية، يخبط الأرض بساقه وعصاه بدويٍّ مرتفع.

- إذن، أحدث نفس، مداوماً النظر عبر النافذة.

تتوارى الشمس الآن خلف مدخنة المبنى المقابل، ظل المدخنة يركض على السقف، ثم يحلق فوق الشارع؛ ليستلقي على وجهي، عليَّ أن أستغل هذا الظل وأكتب القليل من الكلمات حول صانع المعجزات، أخطف القلم وأكتب: «كان صانع المعجزات مديد القامة».

لا شيء أكثر يمكنني كتابته. أظل جالساً، إلى أن يقرصني الجوع. عندها أنهض وأمشي إلى الخزانة حيث أحفظ مؤونتي، أنبش فيها، لكنني لا أجد شيئاً... مكعب سكر ولا شيء أكثر.

الفصل الثاني: زيارة مفاجئة

أحدهم يطرق الباب.

- من هناك؟

لم يجبني أحد، أفتح الباب وأرى أمامي العجوز حاملة الساعة التي كانت تقف في الفناء هذا الصباح. أدهش للغاية، ولا أستطيع قول أي شيء.

- ها أنا ذي أتيت. قالت العجوز ثم دلفت إلى غرفتي.

أتسمر عند الباب، ولا أعرف ماذا عليّ أن أفعل؛ أأطرد العجوز؟ أو على العكس من ذلك، أدعوها للجلوس؟

لكن المرأة العجوز من تلقاء نفسها تسير إلى مقعدي بجانب النافذة، ثم تجلس عليه.

سدَّ البابَ وأدر المفتاح بالقفل، أمرتني العجوز.

أسدّ الباب ثم أُغلقه بالمفتاح.

- اركع، تأمرني العجوز.

فأجثو على ركبتي.

لكن في هذه اللحظة، بدأت أدرك موقفي العبثي تمام الإدراك، لِمَ أركع أمام عجوزٍ ما؟ وبالطبع، لماذا هي في غرفتي وتجلس على مقعدي المفضل؟ لماذا لم أطرد هذه العجوز؟

- اسمعي يا هذه، أقول، بأي حق تستخدمين غرفتي؟ ليس فحسب، بل وتتأمرين عليّ؟ أنا لا أرغب أبداً في الجثو على ركبتي.

- إذن، لا داعي لذلك -تقول العجوز- الآن يجب عليك أن تنبطح على بطنك وتدفن وجهك في البلاط.

وحالاً نفذتُ الأمر...

أرى أمامي مربعات مرسومة بدقة. ألم في كتفي ووركي الأيمن يجبرني على تغيير وضعيتي. أنبطح منكفئاً على وجهي. الآن بصعوبة بالغة أنهض على ركبتي. جميع أطرافي تخدرت وتنثني بصعوبة. أنظر فأرى نفسي في غرفتي، جاثياً على ركبتي في منتصف البلاط. ببطء يعود إليّ إدراكي وذاكرتي. أتفحص الغرفة مرة أخرى. أرى على مقعدي حذو النافذة كأنما أحدهم يجلس.

الغرفة معتمة قليلاً، لا بد أن المساء قد حل. أحدق بحدة. يا إلهي! هل يعقل أن هذه العجوز لا تزال جالسة على كرسيّي؟ أمد عنقي وأدقق النظر. بلى، بالطبع، هذه هي العجوز تجلس ورأسها محني على صدرها. لا بد أنها قد نامت.

أنهض وأمشي بعرج نحوها. رأس العجوز مسدل على صدرها، اليدان متدليتان على جانبي الكرسي. أحس برغبة في حمل العجوز ورميها خارج الباب.

اسمعي يا هذه، أقول، أنت تجلسين في غرفتي. يجب عليّ إنجاز أعمالي. أرجوك أن تخرجي. لكن العجوز لم تحرك ساكناً. أنحني وأنظر إلى وجهها. فمها مفغور، ومن الفم يبرز طقم أسنان اصطناعية. بغتة، بدأت أدرك الأمر: العجوز قد ماتت.

غمرني شعورٌ عارم بالامتعاض، لماذا ماتت في غرفتي...؟

لا أطيق رؤية الموتى، والآن عليّ أن أبقى عالقاً مع هذه الجيفة، أو أن أبلغ حارس البناية أو مدبر المسكن، وأشرح لهما أسباب وجود هذه العجوز في غرفتي. نظرت بكراهية نحو العجوز، لربما أنها لم تمت؟ تحسست جبينها. وجدته بارداً. كذلك اليد. فماذا عليَّ أن أفعل؟

أشعلت غليوني، وجلست على الأريكة، غضب عارم يضطرم في داخلي.

- يا لكِ من حقيرة! أقول بصوت مسموع.

العجوز الميتة تجلس مثل شوال على مقعدي. أسنانها تبرز من فمها. ما أشبهها الآن بحصان نافق.

- مشهد مقزز... أقول، لكن لا أستطيع حتى أن أغطي وجه العجوز بصحيفة، فمن يعلم ماذا يمكن أن يحدث تحت الصحيفة.

من خلف الجدار أسمع حركة: إنه جاري يستيقظ (سائق الترام). فقط هذا ما كان ينقصني، أن يشتم، رائحة العجوز النافقة التي تجلس في غرفتي!

أنصتُ جيدًا لوقع خطوات جاري، لماذا تراه بطيئاً هكذا، الساعة الخامسة والنصف الآن! كان من المفترض أن يكون قد غادر منذ وقت طويل، يا إلهي! إنه يعد كوبًا من الشاي! باستطاعتي من وراء الجدار سماع فحيح الموقد، يا إلهي أتمنى أن يسرع هذا اللعين بالمغادرة.

استلقيت على الأريكة، مرت ثمان دقائق، وجاري لم يجهز بعد كوب الشاي، ما زلتُ اسمع فحيح الموقد.

أغمض عيني ثم أغفو.

الفصل الثالث: حلم

أحلم بأن جاري قد خرج من غرفته، وفي نفس الوقت، أخرج أنا إلى الدرج وأصفق خلفي الباب ذا القفل الفرنسي. لم يكن معي مفتاح، ولا أستطيع العودة إلى داخل المسكن. على أن أقرع الجرس وأوقظ بقية السكان، وهذا سيء للغاية. أقف في فسحة الدرج وأفكر فيما عساني فاعل، وفجأة أرى بأن ليس لدي ذراعان، أحني رأسي لأتحقق من وجود ذراعي، فأرى على أحد جانبي سكين مطبخ تتدلى مكان الذراع، وعلى جانبي الآخر شوكة.

- إذن، أقول لساكريدون ميخائيلوفيتش، والذي - لسبب ما - يجلس هنا على مقعد يُطوَى. «أترى إذن؟ أيُّ أذرعٍ لديَّ؟»

لكن مخائيلوفيتش يجلس في صمت، فأكتشف بأن الجالس لم يكن مخائيلوفيتش من لحم ودم، بل من صلصال!

عندها استيقظ، وأدرك بأنني مستلق على الأريكة بغرفتي، وبمحاذاة نافذتي، على الكرسي تجلس عجوز ميتة.

ألتفتُ سريعًا نحوها، لم تكن العجوز على الكرسي، أمعنت النظر في الكرسيِّ الفارغ، فغمرتني بهجة، يعني هذا كله كان حلمًا.

لكن من أين ابتدئ؟ هل دخلت العجوز أمس إلى غرفتي؟ أو كان ذاك حلماً؟

إذن! لقد عدتُ أمس لأنني نسيت إطفاء الفرن الكهربائي، لكن ربما كان ذلك مجرد حلم.

على كل الأحوال، من الرائع أنه لا وجود للعجوز الميتة في غرفتي، إذن لست مضطراً إلى الذهاب إلى مدبر المسكن ولا إلى أن أتخلص من أي جثة كانت!

ترى كم من الوقت استغرقت غفوتي؟ نظرت إلى ساعتي... إنَّها التاسعة والنصف، لابد أن الصباح قد حل.

يا إلهي! ما أغرب ما يحدث في الأحلام!

أنزلت ساقيَّ من فوق الأريكة؛ لأنهض، وفجأة وقع بصري على العجوز الميتة، كانت ممددةً على البلاط وراء الطاولة بجانب الكرسي. ترقد على ظهرها ووجها للأعلى، وطقم أسنانها قفز خارجًا من فمها، وبطريقة ما حشر سن في فتحة أنفها. ذراعاها ملويتان خلف جذعها، ومن أسفل تنورتها المنحسرة، برزت ساقان نحيلتان في جوربين من الصوف أبيضين متسخين.

- حقيرة أنت، صرخت راكضاً نحو العجوز، ركلت ذقنها بحذائي.

طار طقم الأسنان ووقع في زاوية الغرفة، أردت أن أركلها مجددًا، لكني خشيت أن تظهر علامات الركل على جسدها، فأتَّهم بقتلها.

مشيت بعيدًا عن العجوز، جلست على الأريكة وأشعلت غليوني، وهكذا مضت عشرون دقيقة. الآن بدا الأمر برمته واضحًا في ذهني، سأتعرض للتحقيق الجنائي، وبصورة خرقاء، سأتهم بارتكاب جريمة قتل.

تحول الموقف فجأة إلى وضعٍ خطرٍ وجديٍّ، ويزيد من تعقيده ركلة بالحذاء.

دنوت مجدداً من العجوز، انحنيت أتفحص وجهها. كانت هناك بقعة داكنة صغيرة جدًّا على ذقنها، كلا، كلا، ليست كافية لتوريطي، ما أكثر الأسباب التي يمكن أن تتسبب في ذلك؟ أليس من المحتمل أن تكون العجوز قد اصطدمت بشيء ما عندما كانت على قيد الحياة؟ أهدأ قليلاً، وأسكن في الغرفة، أدخّن غليوني، أفكّر مليًّا في ورطتي.

أسير في الغرفة، أشعر بالجوع يتملكني رويدًا رويدا... بدأت أرتجف من قرصة الجوع. أنبش مجدداً في الخزانة، حيث أحتفظ بالمؤن، ولا أجد شيئاً، سوى مكعب من السكر.

الفصل الرابع: فتاة المخبز

أسحب محفظتي وأحصي ما فيها من النقود، أحد عشر روبلًا، هذا كاف لشراء بعض من السجق والخبز، ويتبقى لديَّ ما يكفي لشراء التبغ.

أعدل ربطة عنقي التي تشربكت ليلة أمس، ألتقطُ ساعتي، أرتدي سترتي، أقفل باب حجرتي بعناية، أضع المفتاح في جيبي، ثم أخرج إلى الشارع. يجب على أن آكل قبل كل شيءٍ، عندها سيصفو ذهني أكثر؛ عندها سأفعل شيئاً بخصوص هذه الجثة.

في طريقي للمتجر تعاودني فكرة؛ ألا يجدر بي الذهاب إلى ساكيردون ميخائيلوفيتش، وأن أحكي له كل شيء؟ ربما، نحن معاً، نتوصل سريعاً إلى حل. لكنني فوراً استبعدت هذه الفكرة، ثمة أمور في الحياة ينبغي على المرء اقترافها وحده، بلا شهود.

في المتجر، لم يكن سجق الخنزير متوفراً، فاشتريت نصف كيلو نقانق دجاج، التبغ أيضاً لم يكن متوفراً، مشيت من المتجر مباشرة إلى المخبز.

في المخبز، كان هناك حشداً كبيراً من الناس، امتد صف طويل أمام البائع. قطبت وجهي متذمراً، مع ذلك انتهيت بأخذ دوري في الصف.

تحرك الصف ببطءٍ، ثم توقف عن الحركة تمامًا، بسبب نزاع بين المشترين أمام البائع.

تظاهرت باللامبالاة، ورحت أتأمل من الخلف جسد فتاة شابة كانت تقف أمامي بالصف. كان من الواضح أن الفتاة فضولية جدًّا؛ كانت تمط عنقها تارة يمينًا وأخرى يسارًا وتتطاول باستمرار على أطراف قدميها؛ لترى ما يحدث في مقدمة الصف عند البائع.

وعندما يئست من معرفة ما يحدث، التفتت نحوي وسألتني:

- هل تعرف ماذا يجري هناك؟

- عفواً، لا أعرف. أجبتها باقتضاب قدر الإمكان.

تلفتت الفتاة في اتجاهات عديدة، ومرة أخرى خاطبتني:

- أيمكنك الذهاب ومعرفة ما يحدث هناك؟

- عفواً، هذا أمر لا يعنيني أبداً، قلتها باقتضاب أكثر.

ردت الشابة:

- كيف لا يعنيك؟ ألا ترى أنك عالق في الصف بسببه!

لم أجبها، واكتفيت بانحناءة طفيفة، فنظرت إليَّ الشابة بنظرة متمعنة.

- بالطبع أعرف أنّه ليس من عمل الرجال الوقوف في طوابير الخبز، قالت. آسفة حقًا لوقوفك بيننا هنا، لا بد أنك أعزب؟

- نعم، أنا أعزب، أجبت بقليل من الارتباك، مع احتفاظي بنبرة مقتضبة للغاية، وانحناءة خفيفة، في الوقت ذاته.

تفحصتني الفتاة مرة أخرى من رأسي إلى قدمي، وفجأة لمست كمَّ قميصي بأصابعها، وقالت:

- اسمح لي أن أشتري لك ما تحتاج من خبزٍ، ويمكنك أن تنتظرني في الخارج.

شعرت بحرج كبير.

- شكرًا لكِ، قلت لها. هذا لطف كبير من جانبك، ولكن، حقاً، أستطيع أن أقوم بذلك بنفسي.

- كلا، كلا، قالت الفتاة، أخرج إلى الشارع، ما الذي كنت تنوي شراءه؟

- أتعرفين! كنت أنوي شراء نصف كيلو من الخبز الأسمر، لكن فقط الخبز البائت، المتخمر. هذا ما أفضله.

- حسنًا، قالت، الآن أذهب، سأشتري الحاجيات، ونتحاسب بعدها. لم تكتفي بذلك بل دفعتني بلطف من مرفقي.

خرجتُ من المخبز، ووقفت أمام الباب.

شمس ربيعية تسطع مباشرة على وجهي، وأنا أنفث غليوني، يا لها من شابة لطيفة! يندر مثيلها في هذه الأيام، أقف هناك وأنا مقطب العينين من سطوع الشمس، أدخن غليوني وأفكر في الفتاة اللطيفة، أتفهمون، عيناها عسليتان فاتحتان. منتهى الجمال. ما ألطفها!

- تدخن الغليون؟ أسمع صوتاً يأتي من خلف ظهري. وإذ الفتاة اللطيفة تمد إلى الخبز.

- أوه، ممتن بلا حدود، أقول، وأنا آخذ منها الخبز.

- إذن أنت تدخن الغليون! هذا يروقني للغاية، تقول الفتاة اللطيفة.

ويدور بيننا الحوار التالي:

تقول: إذن أنتَ تشتري الخبز بنفسك؟

- ليس الخبز فقط، أشتري كل شيء بنفسي.

- وأين تتناول الغداء؟

- أنا أقوم بطهو غدائي عادةً، لكنني أحيانًا آكل في الحانة.

- إذن تحب الجعة؟

- لا، في الواقع أنا أفضل الفودكا.

- أنا أيضًا أحب الفودكا.

- تحبين الفودكا حقًا؟ هذا رائع! أود لو تسنح فرصة، لاحتسائها معك.

- وأنا أيضًا أتمنى ذلك.

- عذراً، هل لي أن أسألك شيئًا ما؟

تقول (احمرّت خجلاً حينها): نعم بالتأكيد، سل ما بدا لك.

- حسنا سأسألك إذن، أتؤمنين بالرب؟

تقول (متفاجئة): الرب؟ نعم بالتأكيد.

- ما رأيك إذن، أن نشتري فودكا ونذهب إلى مسكني، أنا أسكن بالقرب من هنا.

تقول (بحياء): حسنًا، موافقة!

- إذن فلنذهب.

نعرج إلى الحانوت واشتري نصف لتر من الفودكا، ليس لدي المزيد من المال، باستثناء بعض الفكّة، كنا نتجاذب أطراف الحديث عن مواضيع مختلفة، وفجأة تذكرت بأن على بلاط غرفتي تتمدد عجوز ميتة.

أبحث بنظري عن صديقتي الجديدة... ها هي تقف أمام أحد الأرفف تنظر إلى جرار المربى. أتسلل خفية إلى خارج الحانوت. لحسن الحظ لحظة خروجي يتوقف ترام أمامي. أصعد إلى الترام، حتى دون معرفة وجهته.

الفصل الخامس: حديث دسم

أترجل في شارع (ميخايلوفسكايا) وأمشي إلى ساكيردون ميخائيلوفيتش، وأنا أحمل في يدي زجاجة فودكا ونقانق وخبزاً.

فتح لي ميخائيلوفيتش الباب بنفسه، وكان يرتدي روب استحمام فوق جسد عارٍ، وينتعل بوطًا روسيا محزوز الرقبة ويعتمر قبعة فرو ذات جنيحات لحماية الأذنين إلا أن جنيحاتها كانت معقوفة برباط إلى الأعلى.

- سعيد للغاية. قالها عندما رآني.

- أرجو ألا أكون قد شغلتك عن عملك؟ سألته.

- لا، أبداً، قال ميخائيلوفيتش. لم أكن أعمل شيئاً، كنت أجلس هكذا على البلاط.

- أرأيت؟ قلت. لقد جئتك ومعي فودكا وبعض الطعام؛ إن لم يكن لديك مانع، أدعوك للشرب معا.

- جيد جداً. تفضل بالدخول.

دخلنا إلى غرفته. فتحت زجاجة الفودكا بينما أحضر ميخائيلوفيتش، كأسين وطبقاً من اللحم المسلوق إلى الطاولة.

- لقد جلبت بعض النقانق هنا، قلت. كيف يمكننا أكلها: نيئة أم نسلقها؟

- سنسلقها. سأضعها على الموقد وحتى تنضج، نحتسي الفودكا مع اللحم المسلوق، إنه لحم حساء، سلقته بطريقة رائعة للغاية.

وضع ميخائيلوفيتش القدر على موقد كيروسين مشتعل، وجلسنا نحتسي الفودكا.

- شرب الفودكا مفيد، تحدث ميخائيلوفيتش، وهو يعبئ الكأس. وواصل: ميشنيكوف قد كتب بأن الفودكا مفيدة أكثر من الخبز، فالخبز ليس إلا تبن يتعفن في بطوننا.

- في صحتك، تبادلنا الأنخاب.

كنا نشرب ونستطعم باللحم البارد.

- كم هي لذيذة، قال ميخائيلوفيتش.

في هذه اللحظة شيء ما أحدث فرقعة في الغرفة.

- ما هذا؟ سألت.

جلسنا صامتين ننصت، وفجأة، حدثت فرقعة للمرة الثانية، وثب ميخائيلوفيتش من على كرسيه، ونزع الستارة عن النافذة بعنف.

- ماذا تفعل؟ صحت به.

لم يجاوبني، بل هرع إلى موقد الكيروسين وأمسك بالقدر مغطياً يده بقماش الستارة ثم وضعه على الأرض.

- اللعنة! صاح ميخائيلوفيتش. قد نسيت أن أملأ القدر بالماء، وهو قدر مجلفن، أما الآن فطلاؤه قد تقشر.

- مفهوم، قلت، وأنا أومئ برأسي.

جلسنا مجددًا إلى الطاولة.

- فلتذهب إلى الجحيم، قال ميخائيلوفيتش، سنأكل النقانق نيئة.

- إنني أتضور جوعًا، قلت.

- تفضل بالأكل، دافعاً النقانق نحوي.

- تصور، المرة الأخيرة التي أكلت فيها كانت أمس، معك في حانة القبو، بعدها لم آكل أي شيء حتى الآن، قلت.

- حقاً، حقاً، حقا، قال ميخائيلوفيتش.

- ظللت أكتب طوال الوقت، قلت.

- مدهش! هتف بنبرة مبالغة متكلفة.

- إنَّه لشيء عظيم أن تكون في حضرة عبقري.

- كيف لا! قلت.

- هل أنجزت الكثير؟ تساءل ميخائيلوفيتش.

- نعم، استهلكت كومة لا بأس بها من الورق.

- نخب لعبقري زماننا. رافعاً كأسه.

ثملنا. التهم ميخائيلوفيتش اللحم المسلوق، بينما أكلت النقانق، وبعد أن التهمت أربع قطع منها، نفثت غليوني قلت:

- أتدري أنني جئت إليك هرباً من الملاحقة؟

- ومن كان يلاحقك؟

أجبته:

- فتاة.

لكن، لأن ميخائيلوفيتش لم يبد رغبة في معرفة المزيد، بل راح يعبئ كأسه بالفودكا في صمت، تبرعت بمواصلة كلامي:

- التقيتها في المخبز، ووقعت في حبها على الفور.

- أهي جذابة؟ تساءل ميخائيلوفيتش.

- نعم، قلت، تناسب ذوقي.

شربنا، وأنا أواصل كلامي:

لقد وافقت بأن ترافقني إلى منزلي لاحتساء الفودكا، فعرجنا على الحانوت لشرائها، ولكن اضطررت إلى التسلل خفية، وتركها ورائي في الحانوت.

- هل كانت تنقصك النقود؟ تساءل ميخائيلوفيتش.

- كلا، كان لدي ما يكفي على الحد، لكنني تذكرت بأنني لا أستطيع اصطحابها إلى غرفتي!

- ماذا تعني؟ أكان لديك امرأة أخرى في غرفتك؟

- نعم، إن كان هذا ما تود سماعه، توجد امرأة أخرى في غرفتي، قلت مبتسماً، الآن لا يمكنني أن أسمح لأي شخصٍ بالدخول إلى غرفتي.

- تزوجها. ستدعواننى إلى الغداء.

- لا، قلتها بضحكة شاخرة، لن أتزوج هذه المرأة.

- إذن، تزوج تلك، التي في المخبز.

- لماذا أنت حريصٌ هكذا على تزويجي؟

- هكذا إذن؟ قال ميخائيلوفيتش وهو يعبئ كأسه. نخب نجاحك!

واصلنا الشرب. كان جليًّا أن الفودكا بدأت تؤثر وتعبث بنا، نزع ميخائيلوفيتش قبعته الفرو ذات الجناحين المخصصين لغطاء الأذنين، ورماها على السرير.

نهضت ثم بدأت أدور حول الغرفة، إلى أن شعرت بالفعل بدوران في رأسي.

- ما هو شعورك حيال الموتى؟

- سالب تماماً. أنا أخاف منهم.

- نعم أنا أيضاً لا أطيق الموتى، لو وضعت أمامي ميتاً، أياً كانت درجة قرابته مني، لما ترددت في ركله بقدمي.

- لا ينبغي ركل الأموات.

- أما أنا لركلته بحذائي تماماً على وجهه. لا أطيق الموتى والأطفال.

- نعم، الأطفال مقرفون، وافق ميخائيلوفيتش.

- لكن قل لي مَنْ الأسوأ الأطفال أم الموتى؟ سألته.

- أظن الأطفال هم الأسوأ، إنهم كثيراً ما يزعجوننا، بينما الموتى لا يتدخلون في حياتنا.

- بلى يتدخلون! صحت ثم سكت فوراً. نظر إليّ ميخائيلوفيتش باهتمام.

- أتريد المزيد من الفودكا؟ سألني.

- لا! قلت، ثم استجمعت أنفاسي، وأضفت: لا، شكراً، اكتفيت.

عدت وجلست مرة أخرى على الطاولة، لفنا الصمت لبرهة من الوقت.

- أريد أن أسألك -أكسر الصمت أنا أخيراً-، هل تؤمن بالرب؟

تظهر تجعيده عرضية على جبين ميخائيلوفيتش ثم يقول:

- هناك تصرفات غير لائقة. من غير اللائق أن تطلب من شخص خمسين روبلاً ديناً، عندما تكون قد شاهدته للتو وهو يودع مائتين بجيبه. فالأمر يعود إليه أن يقرضك المبلغ أو يرفض، بينما أنسب وألطف طريقة لأحدهم ليرفض هي الكذب، بأنه لا يملك نقوداً. ولكن بما أنك قد رأيت ذلك الشخص وهو يودع النقود بجيبه، فقد جردته من إمكانية أن يرفض بكل سهولة ولطف. أنت قد سلبته حق الاختيار، وهذا تصرف خسيس. إنه تصرف تنقصه اللياقة واللباقة. كذلك، لأن تسأل شخصاً: «أتؤمن بالرب؟» تصرف غير لبق وغير لائق.

- حسنا ولكن، قلت، لا يوجد وجه مقارنة بين السؤالين.

- أنا لم أكن أقارن، قال ميخائيلوفيتش.

- حسنًا، قلت، دعنا من هذا. واعذرني على سؤالي غير اللائق وغير اللبق.

- العفو. أنا بوضوح قد رفضت أن أجيبك.

- أنا بدوري لم أكن لأجيب، قلت، ولكن لسبب مغاير.

- ما هو يا ترى؟ سأل ميخائيلوفيتش بفتور.

- أترى، قلت، أعتقد أنه لا يوجد أناس مؤمنون وآخرون غير مؤمنين؟ إنما يوجد راغبون في الإيمان، وراغبون في عدم الإيمان.

- هذا يعني، بأن الراغبين في عدم الإيمان، هم أصلاً يؤمنون بشيء ما، قال ميخائيلوفيتش، بينما الذين يرغبون في الإيمان، هم أصلاً لا يؤمنون بأي شيء؟

- ربما هذا هو ما عليه الحال، لا أعلم.

- يؤمنون أو لا يؤمنون بماذا؟ بالرب؟ تساءل ميخائيلوفيتش.

- كلا. قلت، بل بالخلود.

- إذن لماذا سألتني، إذا ما كنت مؤمناً بالرب؟

- لأن سؤالاً مثل: «أتؤمن بالخلود»، نوعاً ما يبدو غبيًّا قلت ثم نهضت قائماً.

- ما بك، أتغادر؟ سألني ميخائيلوفيتش.

- نعم، قلت، آن أواني.

- ماذا عن الفودكا؟ قال ميخائيلوفيتش. بقي منها ما يكفي لعبوة كأس لكل منا.

- حسنا؛ لنحتسيها حتى الثمالة.

أكملنا احتساء الفودكا، مستطعمين بقايا اللحم المسلوق.

- والآن يجب عليَّ أن أذهب، قلت.

- إلى اللقاء، قال ميخائيلوفيتش وهو يرافقني عبر المطبخ إلى باحة السلم. شكراً على جلبك الضيافة.

- شكرا لك، قلت. إلى اللقاء.

ثم خرجت.

بعد أن بقي وحيداً، قام ميخائيلوفيتش ينظف الطاولة، وألقى بقارورة الفودكا الفارغة داخل الخزانة، ومرة أخرى اعتمر قبعته الفرو ذات الجناحين، ثم جلس تحت النافذة على البلاط. وضع ميخائيلوفيتش ذراعيه خلف ظهره، فأصبحت غير مرئية. ومن تحت معطف استحمامه المنحسر برزت ساقان نحيلتان عاريتان، منتعلتان في بوطٍ روسي محزوز الرقبة.

الفصل السادس: أفكار ثرثارة

سرت على شارع « نيفسكي « مثقلاً بأفكاري، يجب عليّ الآن حالاً، أن أذهب إلى مدبر البناية وأخبره بكل شيء، وعندما أتخلص من العجوز، سأداوم على الوقوف إلى جوار المخبز يومياً، لا أبرح قبل أن ألتقي تلك الفتاة اللطيفة. على الأقل لأرد لها دينها، فأنا مدين لها بثمانية وأربعين كوبيكاً(2)، قيمة الخبز. لا يزال تأثير الفودكا التي احتسيتها سارياً، فتهيأ لي، أن الأمور بكل سهولة، ستعود إلى نصابها بلا تعقيد.

عندما حاذى طريقي نهر «فونتانكا» توجهت نحو كشك لبيع المرطبات، وبما تبقي في حوزتي من قطع معدنية، طلبت كوباً كبيراً من الكفاس(3) الخبزي. كان طعمه سيئاً وحامضاً، فواصلت سيري والطعم الكريه ينشب في حلقي.

عند منعطف ليتينايا، صدمني سكير وهو يترنح في مشيه يمنة ويسرة. جيد أنني لا أحمل سلاحاً وإلا لأرديته قتيلاً في الحال.

مشيت إلى أن وصلت البناية التي أسكن فيها، وأفترض أن وجهي كان، معوجاً من الغضب. على كل حال، كل من مر بقربي، تقريباً، كان يحدق نحوي.

عرجت إلى مكتب مدبر المنزل، كانت تجلس خلف الطاولة، فتاة قصيرة، قذرة، فطساء، عجفاء، شيباء، كانت تنظر في مرآة يد، تدهن شفتيها بالأحمر.

- وأين مدبر المنزل؟ سألتها.

بقيت الفتاة صامتة وهي تواصل تلوين شفتيها.

- أين مدبر المنزل؟! كررت سؤالي محتداً.

- غداً سيأتي، ليس اليوم، أجابتني الفتاة القذرة الفطساء العجفاء الشيباء.

خرجت إلى الشارع، على الجانب المعاكس كان الرجل الأعرج ذو الساق الاصطناعية يمشي ويخبط الأرض بساقه وعصاه بدويّ مرتفع. كان هناك ستة من الصبية يلاحقونه ويحاكونه ساخرين من مشيته.

عرجت إلى مدخل بنايتي وارتقيت على الدرج. توقفت عند الطابق الثاني؛ راودتني فكرة كريهة: لا بد أن جثة العجوز قد بدأت تتحلل. فأنا لم أغلق النافذة، ويقال أن جثامين الموتى أسرع تحللاً عندما تكون النوافذ مفتوحة.

يا لغبائي! كما أن مدبر المنزل اللعين هذا لن يأتي حتى الغد! وقفت هناك مترددًا لبضع لحظات ثم واصلت الصعود.

توقفت مرة أخرى قبالة باب غرفتي، ربما كان يجب عليَّ أن أذهب وأنتظر الفتاة اللطيفة عند المخبز، لو التقيتها لتوسلت إليها كي تستضيفني بمنزلها لليلتين أو

لثلاث ليال. لكن تذكرت بأنها لن تعود إلى المخبز اليوم؛ بعد أن اشترت حاجتها من الخبز.

وعموماً، لا شيء مما كان يدور في ذهني في تلك اللحظات، قابل للتحقق.

فتحت الباب، ودلفت إلى الممر، في نهاية الممر مصباح مضاء، وكانت ماريا فاسيليفنا، تحمل بيديها خرقة ما، تدعك بها خرقة أخرى. هتفت ماريا فاسلفينا عندما رأتني:

- داء لدل عدوز([4]) يسأل عنك؟

- أي رجل عجوز؟ قلت.

- لا أعلف([5])، أجابت ماريا.

- متى كان هذا؟ سألتها.

- أيضاً لا أعلف.

- هل تحدثت مع الرجل العجوز؟

- لا، أجابت ماريا.

- كيف يعقل أن لا تعرفي، متى كان ذلك؟ قلت.

- قبل شاعتين تقليباً([6]) قالت ماريا.

- كيف كان يبدو ذاك الرجل العجوز؟ سألت.

- لا أعلف، قالت ماريا ثم غادرت إلى المطبخ.

ذهبت إلى غرفتي، ماذا لو -فكرت- اختفت العجوز فجأة؟!

ماذا لو دخلت إلى غرفتي، ولم أجد العجوز هناك، يا إلهي، أحقاً لا تحدث المعجزات؟!

أدرت القفل وبدأت أفتح الباب وئيداً. ربما كان ذلك مجرد تهيؤات، لكن لفحت وجهي رائحة التحلل الكريهة، اختلست النظر عبر الباب الموارب، للحظة، تجمدت في مكاني مشدوهاً، كانت المرأة العجوز واقفة على أربعتها، تزحف بطيئاً نحو الباب.

صفقت الباب بصرخة عالية، أغلقته بالمفتاح، ثم قفزت بعيداً إلى الجدار المعاكس.

ظهرت ماريا فاسيليفنا في نهاية الممر.

- هل كنت تليدني([7])؟ تساءلت.

كنت أرتجف إلى حد أنني لم أستطع الكلام، أومأت بالنفي، اقتربت مني ماريا.

- لكن أكنت تتحدث مع أحدهم؟ تساءلتْ.

- أومأت بالنفي مجددًا.

- مدنون([8]) قالت ماريا، ثم اتجهت إلى المطبخ وهي تتلفت نحوي مرة بعد أخرى.

«لا يجب الوقوف هكذا، لا يجب الوقوف هكذا»، عبارة رددتها ذهنياً. كانت قد تخلقت في مكان ما في دواخلي. وظللت أرددها إلى أن طفت على سطح إدراكي.

- نعم، لا يجب الوقوف هكذا، قلت لنفسي، ولكنني بقيت متسمراً كالمشلول. وقع شيء مريع، ولكن يجب عليّ القيام بعمل، ربما، أشد بشاعة، مما وقع بالفعل. أفكاري كانت تدور في دوامة، وكنت لا أرى إلا العينين الغاضبتين للعجوز الميتة، وهي تزحف على أربعتها بطيئاً باتجاهي.

سأقتحم الغرفة وأسحق جمجمة تلك العجوز. هذا ما يجب عليّ فعله! طفت في المكان بنظراتي، وشعرت بارتياح حينما رأيت مطرقة كروكيه، لسبب غير معلوم، ظلت لسنوات طويلة مهجورة في ركن الممر.

إذن عليَّ عمل التالي: أخطف المطرقة، أقتحم الغرفة ثم طاخ!...

الرعشة لم تتوقف بعد. وقفت بأكتاف مرفوعة من البرد بداخلي. كانت الأفكار تتقافز برأسي وتختلط ثم تعود إلى نقطة البداية ومجدداً تتقافز، لتحتل مساحات جديدة، وأنا بقيت واقفاً أستمع إلى أفكاري، وكأنني أقف خارجها، بمعزل عنها، كأنني لست من يسيطر عليها.

- الأموات، قالت لي أفكاري الخاصة، نوع غير مؤتمن. عبثاً يسمونهم هامدون، بالأحرى هم داهمون. يجب مراقبتهم دوماً. اسأل عن ذلك أي حارس قبور. ولماذا تظن أن هناك حراس للقبور؟ فقط من أجل: أن يمنعوا الأموات من الزحف خارج قبورهم. أحياناً تحدث وقائع مضحكة. مثلاً بينما كان أحد حراس القبور، يستحم، بأوامر من رئيسه، زحف أحد الموتى من قبره، وتسلل إلى غرفة التعقيم، والتهم هناك كومة من الملاءات. إلا أن عمال التعقيم أشبعوه ركلاً، فوق ذلك كان عليهم تحمل قيمة الملاءات التالفة من جيوبهم. ميت آخر تسلل إلى مستشفى الولادة، فأثار الذعر بين الحوامل، حتى أن إحداهن أجهضت جنينها، فانقض الميت يقضم الجنين المجهض، وعندما ضربته ممرضة شجاعة بمقعد على ظهره، عضها في ساقها، فتسممت وسرعان ما ماتت متأثرة بسم الجسد الميت. نعم، الأموات نوع لا يؤتمن، ويجب التعامل معهم بمنتهى الحذر

- توقفي! قلت لأفكاري الخاصة. هذا هراء. فالأموات لا يتحركون.

- حسنًا، قالت لي أفكاري الخاصة، أدخل إذن إلى غرفتك، حيث يوجد، كما تقول، ميت لا يتحرك.

عناد غير متوقع عصف برأسي.

- سأدخل! قلت بتصميم لأفكاري الخاصة.

- جرب! قالت لي أفكاري الخاصة.

سخريتها أغضبتني. التقطت مطرقة الكروكيه وأسرعت نحو الباب.

- تمهل! نادتني أفكاري الخاصة. لكنني كنت قد أدرت المفتاح وفتحت الباب على مصراعيه.

كانت العجوز ممددة عند الباب، وجهها منكفئ على البلاط.

وقفت متأهباً ومطرقة الكروكيه مرفوعة بيدي. لكن العجوز لم تحرك ساكناً.

تلاشت الرعشة، وتدفقت في رأسي، أفكاري واضحة ودقيقة، وتحت سيطرتي.

الفصل السابع: تخطيط محمول

- أولاً وقبل كل شيء، أغلق الباب. أمرتُ نفسي بذلك.

سحبت المفتاح من الجانب الخارجي من الباب ووضعته في الداخل، فعلت هذا بيدي اليسرى بينما يدي اليمنى ممسكة بمطرقة الكروكيه، وعيناي لا تتحولان عن العجوز، أغلقت الباب بالمفتاح، ثم بحذر خطوت فوق العجوز ومشيت إلى منتصف الغرفة.

قلت، الآن أنا وأنتِ سنتحاسب.

طرأت لي خطة، من النوع الذي عادة ما يلجأ إليه القتلة في القصص الإجرامية أو في تقارير الجرائم الصحفية؛ أردت بجهنمية أن أخفي العجوز في حقيبة، وأنقلها إلى خارج المدينة ثم أرميها في مستنقع. كنت أعرف مكاناً مناسباً لذلك.

كان لديَّ حقيبةٌ أسفل الأريكة، سحبتها ثم فتحتها، كانت تحتوي على أغراض مختلفة، قليل من الكتب، برنيطة قديمة، وبعض الملابس الداخلية المهترئة، فرغت محتوياتها على الأريكة.

وفي هذه اللحظة صُفعَ الباب الخارجي بقوةٍ، وبدا لي أن العجوز قد أجفلت.

قفزت فورًا من مكاني وقبضت على مطرقة الكروكيه، إلا أن العجوز ظلت ترقد في سكون.

وأنا واقف، أرهف سمعي جيدًا، ها هو جاري سائق الترام، قد عاد لتوه، أسمع وقع خطواته وهو يمشي في غرفته. ها هو يمشي في الممر متجهاً إلى المطبخ. ماذا إذا أخبرته ماريا فاسيليفنا عن جنوني؟! هذا لن يكون جيداً. يا لها من إبليسة! إذن عليّ بدوري أن أعبر بالمطبخ حتى أبدد مخاوفهما، بحضوري.

مجددًا خطوت فوق المرأة العجوز، وضعت مطرقة الكروكيه تماماً عند الباب، حتى أتمكن عند عودتي من إلتقاطها، قبل دخول الغرفة، ثم خرجت إلى الممر. وصلتني أصوات من المطبخ، لكن الكلمات لم تكن مسموعة. أوصدت باب غرفتي ثم مشيت بحذرٍ نحو المطبخ: أردت أن أعرف عن أي شيء تتحدث ماريا فاسيليفنا إلى السائق؟!

عبرت الممر بسرعة وأبطأت قرب المطبخ، كان سائق الترام يتحدث -فيما يبدو- عن شيء ما وقع أثناء عمله اليوم. دخلت إلى المطبخ وكان سائق الترام واقفاً، وبيده منشفة، بينما ماريا فاسلفينا تجلس على مقعدٍ خشبيٍّ تستمع إليه، عندما رآني سائق الترام حياني بتلويحة.

- مرحبا، مرحباً، ماتفيه فيليبوفيتش، حييته وواصلت سيري إلى المرحاض. حتى الآن كل شيء يبدو هادئاً. فماريا فاسيليفنا قد تعودت على غرابة تصرفاتي، ومن المحتمل أن تكون قد نسيت الواقعة الأخيرة.

فجأة! تذكرت بأنني لم أوصد باب غرفتي بالمفتاح! ماذا لو زحفت العجوز إلى خارج الغرفة؟

هممت بالهرولة إلى الغرفة، ولكن في الوقت المناسب أبطأت، كي لا أثير الهلع أثناء مروري بالمطبخ، فعبرته بخطوات وئيدة.

كانت ماريا فاسيليفنا تطرق على المقعد الخشبي بأصبعها وتقول للسائق:

- ممتاز، هدا رائع؛ أنا نفسي لكنت أطلق صفيراً.

بقلب خافق، ما أن تجاوزت المطبخ إلى الممر، هرولت سريعاً إلى غرفتي. كان كل شئ يبدو هادئاً في الخارج. اقتربت من الباب، دفعته ونظرت داخل الغرفة. كانت العجوز على هيأتها ممدة بلا حراك، ووجهها منكفئ على البلاط. مطرقة الكروكيه قرب الباب حيث تركتها. التقطتها، ثم ولجت إلى الغرفة وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح. الآن، تحديداً، أصبحت رائحة الغرفة كالجثة. خطوت فوق العجوز، ومشيت إلى النافذة ثم جلست على الكرسي. أتمنى أن لا تصيبني الرائحة بالتعب والإرهاق ، مع أنها حتى الآن لا تفوح بقوة، لكنها تظل غير محتملة. نفثت غليوني. شعرت بالغثيان، وآلمني بطني قليلاً. حسناً، لم أجلس هكذا؟ يجب العمل سريعاً، قبل أن تتعفن هذه العجوز كلياً.

الفصل الثامن: المحطة الأخيرة

على أية حال، يجب عليّ أن أحشر العجوز داخل الحقيبة بكل حذر، هنا تحديداً من الممكن أن تعض أصابعي. فأموت متسمماً بسمّ جثة. كلا، شكراً!

- آها! هتفت فجأة وأنا أتساءل، بماذا يا ترى تنوين عضي؟ فسنيناتك، هناك على الأرض!

انحنيت على الكرسي ونظرت إلى الركن ناحية الطرف الآخر للنافذة، حيث كانت توقعاتي تشير إلى مكان سقوط طقم أسنان العجوز. لكن الطقم لم يكن هناك.

فكرت: ربما زحفت العجوز الميتة في أرجاء غرفتي، تبحث عن طقم أسنانها؟ وربما قد وجدته وأعادته إلى فمها؟

حملت مطرقة الكروكيه ونبشت بها في الزاوية. لا شيء... الطقم قد اختفى. سحبت من الخزانة ملاءة مصنوعة من الفانلة السميكة ومشيت بها نحو العجوز.

أمسكت مطرقة الكروكيه مستعداً بيدي اليمنى، وباليسرى حملت ملاءة الفانلة.

هذه العجوز الميتة جعلتني أشعر برهاب التقزز. رفعت رأسها بالمطرقة: كان الفم فاغراً، العينان شاخصتان إلى الأعلى، وعلى الذقن حيث ركلتها بحذائي، انتشرت بقعة عريضة قاتمة. ألقيت نظرة داخل فم العجوز. كلا، لم تسترد طقم الأسنان. أفلت الرأس، فارتطم على البلاط.

عندها قمت بفرش ملاءة الفانلة على البلاط وسحبت طرفها بمحاذاة العجوز. ثم قلبت العجوز على ظهرها بدفعها من جانبها الأيسر مستخدماً قدمي ومطرقة الكروكيه. الآن هي ترقد على الملاءة. كانت ساقا العجوز مثنيتين عند الركبتين، بينما القبضتان متشبثتان بالأكتاف. بدت العجوز المستلقية على ظهرها، أشبه بقطة تستعد لحماية نفسها من نسر منقض. هيا سريعاً، للتخلص من هذه الجيفة!

لففت العجوز في الملاءة السميكة ثم حملتها على يديّ. وجدتها أخف مما كنت أظنها. أنزلتها داخل الحقيبة ثم حاولت إغلاق الغطاء. وكنت أتوقع أن تواجهني كل صعوبة ممكنة في هذه اللحظة، ولكن غطاء الحقيبة أغلق بسهولة معقولة. أمنت أقفال الحقيبة ثم أوقفتها عمودياً.

انتصبت الحقيبة أمامي، بمظهر لائق للغاية، وكأنها تحتوي على ملابس وكتب. أمسكتها من مقبضها وحاولت حملها. بالتأكيد هي كانت ثقيلة، ولكن ليس بدرجة مبالغة، بالتأكيد أستطيع حملها إلى الترام.

نظرت إلى الساعة. كانت الخامسة وعشرون دقيقة. هذا جيد. جلست على الكرسي لأرتاح قليلاً وأدخن الغليون. يبدو أن النقانق التي أكلتها اليوم لم تكن صالحة تماماً، لأن ألم بطني يشتد أكثر فأكثر. ربما لأنني أكلتها نيئة؟ وربما كان بطني يؤلمني نتيجة لتوتري.

أجلس وأدخن. ودقائق تلاحق دقائق. شمس ربيعية تسكب ضوءها على النافذة، فأقطب وجهي من سطوعها. ها هي تتوارى خلف مدخنة المبنى المقابل، وظل المدخنة يركض على السقف، يحلق فوق الشارع ليستلقي على وجهي. أتذكر كيف بالأمس في مثل هذا الوقت جلست وكتبت قصة. ها هي: ورقة بمربعات، وعليها كتابة، بخط دقيق: «كان صانع المعجزات، طويل القامة».

نظرت خلال النافذة. إلى الشارع كان هناك رجل أعرج يمشي على ساق اصطناعية، يخبط الأرض بساقه وعصاه، بدويٍّ مرتفع. عاملان وامرأة عجوز، كانوا يمسكون بخواصرهم من شدة الضحك على مشية الأعرج المضحكة.

وقفت. الآن! حان وقت الرحيل! حان أوان نقل العجوز إلى المستنقع! لا زال يتعين عليّ اقتراض نقود من جاري سائق الترام.

خرجت إلى الممر وسرت إلى بابه.

- ماتفيه فيليبوفيتش، هل أنت هنا؟ سألت.

- نعم. أجاب السائق.

- إذن، أرجو المعذرة، ماتفيه فيليبوفيتش، هل لديك فائض من النقود؟ أنا سأتسلم راتبي بعد غد، هل بمقدورك إقراضي ثلاثين روبلاً؟

- بمقدوري، قال السائق. وسمعت صلصلة مفاتيح، وهو يفتح صندوقاً ما. بعدها فتح الباب ومد إليّ ورقة حمراء جديدة من فئة الثلاثين روبلاً.

- شكراً جزيلاً، ماتفيه فيليبوفيتش، قلت.

- لا داعي للشكر، العفو، قال السائق.

حشرت النقود في جيبي وعدت إلى غرفتي، كانت الحقيبة تنتصب بهدوء في ذات المكان.

- حان الآن وقت الرحيل، بلا تأنٍ، قلت لنفسي.

حملت الحقيبة وغادرت الغرفة.

رأتني ماريا فاسيليفنا وأنا أحمل الحقيبة فهتفت:

- إلى أين داهب؟

- إلى خالتي، قلت.

- أتلدع قلیباً؟ سألت ماريا فاسيليفنا

- نعم، يتعين عليَّ أن آخذ بعض الملابس إلى خالتي، ولربما أرجع اليوم.

خرجت إلى الشارع. كنت أحمل الحقيبة تارة بيمناي وتارة بيسراي. إلى أن تمكنت في الوصول إلى الترام.

صعدت عبر المدخل الأمامي لمقطورة الترام، ثم طفقت ألوح بيدي لقاطعة التذاكر لتأتي ناحيتي حتى أسدد ثمن التذكرة والحقيبة. لم أكن راغباً في جعل الثلاثين روبل الوحيدة التي بحوزتي، أن تعبر الترام من أوله إلى آخره، بالمناولة من يد راكب إلى آخر حتى تصل إلى قاطعة التذاكر، كما كنت أخشى أن أترك الحقيبة وحدها، لأذهب بنفسي إلى حيث تقف القاطعة.

وصلت قاطعة التذاكر إلى مكاني، لكنها عندما رأت فئة الثلاثين روبل بيدي، أعلمتني بأنها لا تملك صرافة. بالنتيجة، كنت مجبرا عليّ مغادرة الترام عند أول محطة.

وقفت حانقاً في انتظار الترام التالي. كان بطني يؤلمني وساقاي ترتجفان قليلاً.

وفجأة لمحت فتاتي اللطيفة: كانت تعبر الطريق، دون أن تلتفت ناحيتي.

خطفت الحقيبة وهرولت خلفها. لم أكن أعرف اسمها، ولم أتمكن من مناداتها. كانت الحقيبة تعرقلني بشكل مريع. كنت أحملها أمامي بكلتا يدي وأدفعها بركبتي وبطني. كانت الفتاة اللطيفة تمشي بخطوات سريعة بما يكفي، وشعرت بأنني سوف لن أتمكن من اللحاق بها. كنت مبللًا بالعرق، خائر القوى. دارت الفتاة اللطيفة وراء المنعطف، عندما وصلت إلى بدايته كانت قد تلاشت تماماً عن الأنظار.

- عجوز لعينة! غمغمت ملقياً بالحقيبة على الأرض.

تبللت أكمام سترتي الجلدية بالعرق والتصقت بيدي. توقف صبيان قبالتي وهما يراقبانني. اصطنعت الهدوء ورحت أتلفت للنظر تجاه أقرب مدخل بناية، كأنني أنتظر أحداً. تهامس الصبيان وهما يشيران بأصابعهما نحوي. تملكني غضب عارم كتم أنفاسي. آه، ليتني قادر على أن أصيبهما بمرض الكزاز!

اضطررت، بسبب هذين الصبيين الوقحين، إلى أن أقف وأحمل الحقيبة، وأمشي بها نحو مدخل البناية وأنظر داخله. أتصنع الدهشة، أنظر إلى ساعتي ثم أرفع كتفي مستهجناً. لا زال الصبيان من على البعد يراقباني. مرة أخرى أرفع كتفي ثم ألقي بنظرة ثانية في مدخل البناية.

- غريبة، أتكلم بصوت مسموع، أحمل الحقيبة وأدفع بها تجاه محطة الترام. وصلت إلى محطة القاطرات في السابعة إلا خمس دقائق. أشتريت تذكرة ذهاب وعودة إلى محطة «ليسي نوس» ثم صعدت إلى القطار.

كان هناك شخصان آخران في الكابينة إلى جانبي، أحدهما، كما يبدو، عاملًا متواضعًا، أخذ به التعب كل مأخذ، فأسبل قبعته فوق عينيه، وغاب في سبات. الآخر، لا يزال شاباً فتياً، متأنقاً بطريقة قروية...

من تحت سترته يظهر بلوفر وردي اللون، ومن أسفل قبعته يتدلى شعر أجعد. وهو يدخن تبغاً رخيصاً بمبسم بلاستيكي أخضر فاقع.

وضعت الحقيبة بين الكنبتين المتقابلتين ثم جلست. أشعر بمغص حاد وأضغط على بطني بقبضتي، حتى أتغلب على الألم.

على الرصيف أشاهد شرطيين وهما يقتادان مواطنًا ما إلى السجن. كان يمشي مشبكًا يديه وراء ظهره مطأطئًا رأسه.

تحرك القطار. أنظر إلى الساعة: السابعة وعشر دقائق.

أوه، ما أسعدني وأنا أتعجل للتخلص من هذه العجوز في المستنقع! من المؤسف أنني نسيت إحضار العصا معي، سيتحتم عليّ، دفع العجوز بيديَّ.

ظل القروي المتأنق صاحب البلوفر الوردي، يراقبني بوقاحة. أدير له قفاي لأنظر خلال النافذة.

أشعر بتقلصات حادة في بطني؛ فأطبق أسناني بشدة، أجمع قبضتي وأشد قدميَّ.

نعبر محطتي لانسكايا ثم نوفايا ديريفنيا. في البعيد تتلألأ السماء مثل قبة معبد بوذي، وفي البعيد يظهر البحر.

أقفز من مكاني، غير عابئ بمن حولي، وأركض بخطوات متقاصرة نحو المرحاض. شعرت كأنما موجة عارمة تداهمني وتجرف وعيي معها إلى غياهب الغياب.

يبطئ القطار سيره. نقترب من محطة لاختة. أجلس بهدوء تام، خوفاً من أن يتم طردي من المرحاض عند توقف القطار بالمحطة.

- ليته ينطلق سريعاً! ليته ينطلق سريعاً!

يتحرك القطار، وأغلق عيني من المتعة. آه، هذه اللحظات تحمل متعة لا توصف، مثل نشوة الحب! كل قواي مستنفرة، ولكنني أعلم بأنني عقب فراغي، سأكون منهكاً للغاية.

توقف القطار مرة أخرى. هذه محطة أولجينو. إذن إنها المعاناة من جديد!

الآن مخاض كاذب. عرق بارد يسيل على جبيني، وبرودة خفيفة ترفرف حول قلبي. أنهض وأبقي رأسي لبعض الوقت مسنداً إلى الجدار. القطار يتحرك، واهتزاز المقطورة يشعرني بالمتعة.

استجمع كل قوتي وأترنّح خارجاً من المرحاض.

كانت المقطورة خالية. يبدو أن العامل والقروي المتأنق صاحب البلوفر الوردي، قد غادرا في محطة لاختة أو أولجينو. أمشي ببطء إلى مقعدي جوار النافذة.

فجأة أتوقف وأحدق أمامي ببلادة. الحقيبة لم تكن موجودة حيث تركتها. لا بد أنني قد أخطأت مكان جلوسي. أجري إلى النافذة التالية. الحقيبة غير موجودة. أقفز وراءً وأمامًا، أركض من مقدمة العربة إلى مؤخرتها، أنظر تحت المقاعد، لكن الحقيبة لا توجد في أي مكان.

نعم، وهل في ذلك شك؟ بكل تأكيد، قد سرقت الحقيبة بينما كنت في المرحاض، هذا أمر حدث وكان من الممكن التنبؤ به!

أجلس على الأريكة بعينين جاحظتين، ولسبب مجهول، في هذه اللحظة لا إرادياً تمر بخاطري، فرقعة الطلاء عندما تقشر القدر الساخن لدى ساكيردون ميخائيلوفيتش.

- ماذا في المحصلة؟ أسأل نفسي. حسناً، من سيصدق الآن بأنني لم أقتل المرأة العجوز؟ سيتم اعتقالي اليوم، هنا في مكاني، أو في محطة القطارات عند عودتي إلى المدينة، تماماً مثل ذاك المواطن، الذي كان يمشي مطأطئ الرأس.

أخرج إلى ردهة العربة. القطار يقترب من محطة «ليسي نوس». أعمدة بيضاء تومض على جانبي الطريق. توقف القطار. كان درج عربتي مرتفع عن الأرض. أقفز وأمشي نحو مبنى المحطة. أمامي نصف ساعة قبل موعد انطلاق القطار العائد إلى المدينة.

أمشي إلى الغابة. ها هو دغل من شجيرات العرعر. لا أحد سيراني خلفه. أتجه إليه.

يسروع كبير أخضر يزحف على الأرض. أركع على ركبتي وألمسه بإصبعي. بقوة وتعرق يطوي نفسه جانباً مرات عديدة.

أتلفت حولي. لا أحد يراني. قشعريرة خفيفة تسري بظهري. أحني رأسي خفيضاً وأقول بصوت هامس:

- بإسم الأب والإبن والروح القدس، في الآن والحين وإلى أبد الآبدين: آمين.

* * *

بهذا مؤقتاً سأنهي مخطوطتي، في تصوري، أنها طالت بما فيه الكفاية.

آخر مايو والنصف الأول من يونيو سنة 1939.

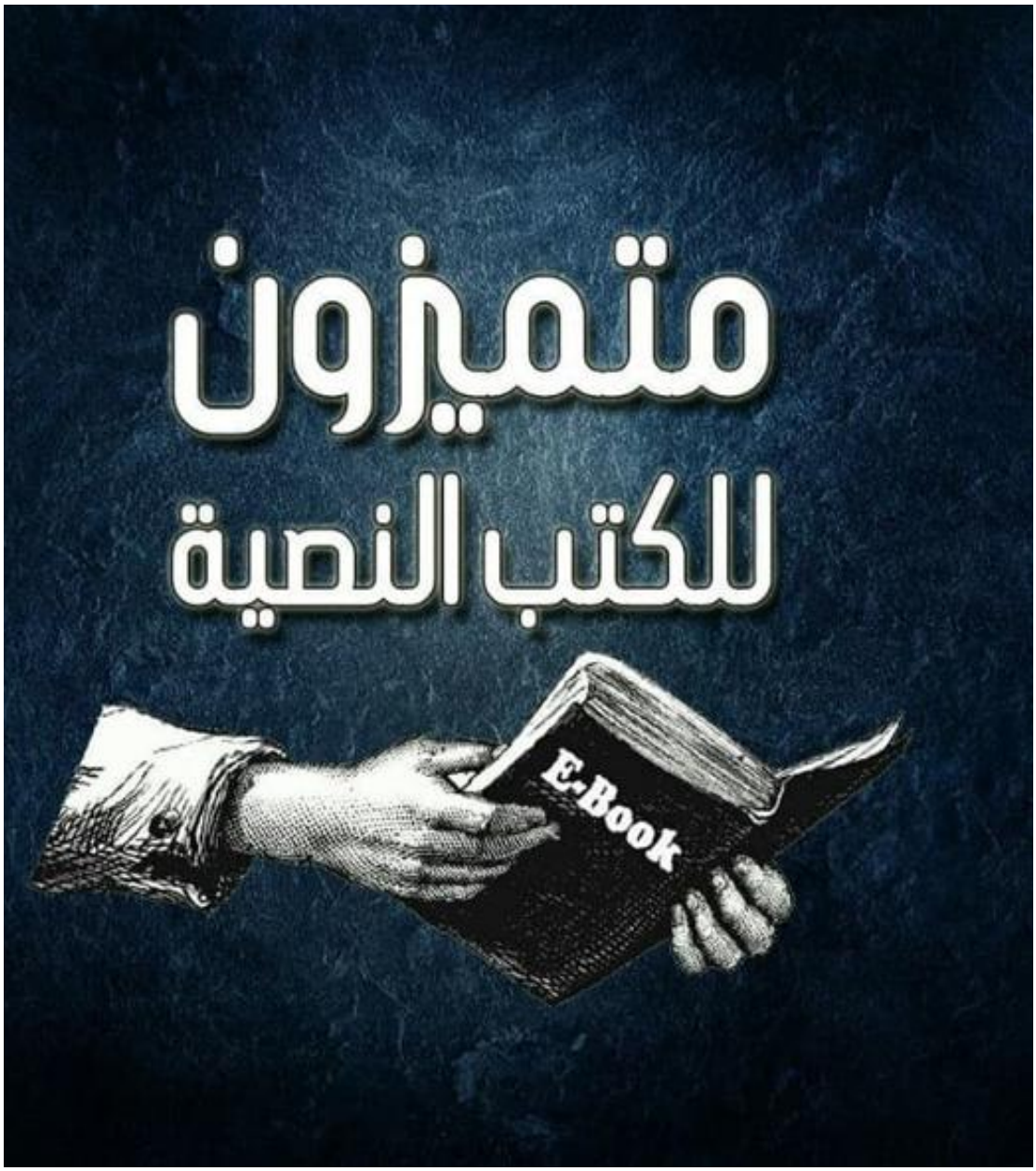
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء خاص..

الفصل الأول: ساعة دون عقارب

الفصل الثاني: زيارة مفاجئة

الفصل الثالث: حلم

الفصل الرابع: فتاة المخبز

الفصل الخامس: حديث دسم

الفصل السادس: أفكار ثرثارة

الفصل السابع: تخطيط محمول

الفصل الثامن: المحطة الأخيرة

Notes

[←1]

(1) الكزاز: مرض يعرف بتسمم التيتانوس، يصيب العضلات بالتشنج والتصلب.

[←2]

(2) كوبيكا- هي أصغر قطعة نقدية كانت تستخدم في وقت الاتحاد السوفيتي السابق وهي تمثل واحد في المائة من الروبل.

[←3]

(3) كافاس هو مشروب خالي من الكحول، يصنع من خبز الجاودار، والمعروف في العديد من دول أوروبا الشرقية وخاصة في روسيا بالخبز الأسود.

[←4]

(4) جاء رجل عجوز

[←5]

(5) لا أعرف

(6) ساعتين تقريباً [←6]

[←7]

(7) هل كنت تريدني؟

[←8]

(8) مجنون